

المحاضرة الخامسة بعنوان

الصحة والمرض

عناصر المحاضرة

مدخل

أولاً: مفهوم الصحة وعلاقتها بالمرض.

ثانياً: مفهوم المرض وأسبابه.

ثالثاً: النظريات المفسرة للمرض.

مدخل

يهتم علم الاجتماع الطبي بدراسة العلاقة بين الصحة والمرض والعلاج، وبالتالي تبرز دراستها جوانب هذه العلاقة ولاسيما أهمية الجوانب الاجتماعية والثقافية في تحديد أنماط الأمراض وتفسيرها وعلاجها وطبيعة العلاقة مع الخدمات الصحية وطرق علاجها.

ولذلك فإن الدراسة الطبية ذاتها تؤكد على خطأ الاعتقاد بأن مشاكل الطب تقع على عاتق الأطباء وحدهم، لأن المرض ليس حقيقة معزولة كحقائق الكيمياء والرياضة، وإنما هو انعكاس لظروف المجتمع العامة التي يعايشها الإنسان، فلا جدوى من إنشاء الكثير من المستشفيات والمراكز الصحية والخدمات الصحية والعلاجية بدون حل المشاكل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية.

ولذلك فإن نقطة الالتقاء بين الأطباء وعلماء الاجتماع هي أن الاهتمام الأساسي للطبيب هو كيفية المحافظة على الصحة، والسيطرة على المرض، والطرق التي يؤثر بها السلوك الإنساني في هذه العملية، أما علماء الاجتماع الطبي فإنهم يخرطون في البحث عن المظاهر الاجتماعية للجوانب الصحية والمشكلات في الواقع المجتمعي.

خاصة وأن هذه المشكلات لا تعترف بأثرها على السلوك الإنساني في حالات الصحة والمرض، وإنما عن طريق المؤشرات التي يمكن أن تعكس السلوك في استجاباته لحالتي الصحة والمرض وهكذا ترتبط الصحة والمرض بنوعية الحياة، وإعادة إنتاجها والحفاظ عليها وفقدانها.

ولذلك كان من الطبيعي أن يهتم علم الاجتماع الطبي بكيفية إدراك الناس لعالمهم، وفيما يتعلق بالصحة وحدوث المرض وخصائص الأنساق والقيم الاجتماعية، ولذلك سيتطرق بنا الحديث في تحليل ومعرفة مفهوم الصحة وعلاقتها بالمرض ومفهوم المرض وأسبابه، والنظريات المفسرة له، وأخيراً العلاقة بين المهنة والمرض.

أولاً: مفهوم الصحة وعلاقتها بالمرض

يختلف مفهوم الصحة من ثقافة إلى أخرى، كما أن دراسة ما يعد في كل بيئة حالة طيبة أو سليمة من النواحي الجسمية أو النفسية أو كليهما معاً فضلاً عن غياب المرض، هذه الدراسة تتضمن دراسة كل الظروف والعناصر الثقافية والاجتماعية التي تكون مفهوم صحة الشخص ونموه وعلاقته بالعالم المحيط به والآخرين.

ولقد وجه بعض علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا النقد إلى ميدان علم الاجتماع الطبي والأنثروبولوجيا الطبية لأنها اهتمت بالمرض أكثر من الصحة، فمعنى ذلك أن مجموع جوانب حياة الإنسان وبيئته الاجتماعية سوف تصبح محلاً للدراسة بدلاً من الاقتصار على دراسة حالته الفسيولوجية الراهنة فقط.

كما أن هذا التوجه سوف يعني ضمناً الوقاية من المرض قبل علاج المرض، ويلاحظ أن معايير الصحة ومفاهيمها تتباين ليس جغرافياً وثقافياً فحسب، وإنما تاريخياً أيضاً، حيث تتعرض للتغير بمرور الزمن استجابة للتغير الذي يطرأ على أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وكذلك على نظم الرعاية الصحية التقليدية المتطورة تطوراً كبيراً.

تظهر تعريفات للمرض مع ظهور أنواع جديدة من الأمراض، فمن المعروف أن أنواع المرض وأنماط الوفيات الراجعة إلى أسباب مرضية قد تغيرت بفضل عملية التنمية الاقتصادية، فنجد في البلاد النامية معدلات الوفاة للرضع مرتفعة نسبياً وأن أمد الحياة المتوقع قصير نسبياً.

بينما في البلاد المتقدمة فيلاحظ بصفة عامة انخفاض معدلات وفيات الرضع وطول أمد الحياة المتوقعة، وظهور أمراض جديدة كالسرطان وأمراض القلب والدورة الدموية باعتبارها أسباباً رئيسية للوفيات في البلاد المتقدمة.

وهناك ظاهرة لا نلمسها في البلاد النامية وهي الفصل بين أسباب الإصابة بالمرض وأسباب الوفاة، فالأمراض الشائعة كأسباب للوفاة في البلاد النامية موجودة أيضاً في البلاد المتقدمة ولكنها لم تعد أمراضاً مؤدية إلى الموت في أغلب الأحيان.

وترجع هذا الظاهرة إلى:-

- ارتفاع مستويات التغذية.

- توفر الرعاية الصحية بشكل أفضل.

ومع ذلك لم تشهد الدول التي تقدمت فيها نظم الرعاية الصحية تراجعاً في الخدمات الصحية وإنما تلاحظ تزايد الطلب على الخدمات الصحية بشكل مستمر وازدياد نصيبها من الميزانيات القومية وذلك لعدة أسباب منها:

- تقدم أساليب العلاج الطبي إلى مستويات فائقة الدقة.

- تغير الوعي العام في تلك البلاد.

- تعريفات المرض والصحة.

وهذا الوضع من العوامل المهمة حفز القائمين على التخطيط الصحي في البلاد المتقدمة والنامية على حد سواء إلى مراجعة الاتجاه الذي يتبنونه في الماضي والذي يركز على المرض والتحول إلى اتجاه الحفاظ على الصحة.

وقد قدمت منظمة الصحة العالمية تعريف الصحة بأنها حالة تمتع الفرد بكامل العافية البدنية والعقلية والاجتماعية، وليس مجرد خلوه من الأمراض أو العاهة، وبالتالي هناك علاقة وثيقة بين الصحة العامة والعوامل الاجتماعية.

علاوة على ذلك فإن علينا أن نعترف أنه على المدى الزمني البعيد فإن سلامة صحتنا سوف يقل اعتمادها على تقدم الممارسات الطبية، وسيزداد اعتمادها على الأسلوب الذي نختاره للحياة، وما يحدث في البيئة التي نعيش فيها، والأكثر من ذلك أن جانباً كبيراً من حيويتنا الجسمية ترجع إلى المشاركة والاندماج في أنشطة الحياة اليومية، والإحساس بمعنى النشاط الاجتماعي الذي نمارسه في الحياة.

وعلى هذا ظهر ما يسمى بسوسيولوجيا الصحة وهي قسم للنماذج التفسيرية الطبية، تلك التي تركز على آليات الأمراض العضوية، وأن التفسير الاجتماعي يعيد توجيه الاهتمام إلى العلاقات الاجتماعية بوصفها المحددات القوية للتجربة الصحية المتغيرة.

وبالاعتماد على المعرفة بعلم الأمراض الوبائية وبتقنية الكشف عن التوزيع الاجتماعي المميز للشروط المحددة تحديداً طبياً في مجموعة ما من السكان، فإن التركيز يدور حول متغيرات مثل الجنس والطبقة بوصفها مؤثرات مباشرة في عمليات التعرف على مسببات المرض ويتصل بهذا الاهتمام تطوير مفاهيم جديدة عن الصحة واعتلال الصحة من زوايا غير طبية.

وعموماً فإن مضمون الصحة يعد مطلباً أساسياً حتى وإن كان من المتعذر تعريفه تعريفاً دقيقاً، وبالتالي فالصحة تعرف بشكل أكثر وضوحاً بوصفها حالة الكفاءة البدنية والنفسية والاجتماعية الكاملة، وليست مجرد الخلو من المرض أو العاهة، واكتمال صحة الإنسان تجيء عن طريق اكتمال العناصر التالية:-

1- اكتمال الجانب البدني: بمعنى أن تؤدي جميع أعضاء الجسم للإنسان وظائفها بصورة طبيعية، وبالتوافق والانسجام مع أعضاء الجسم الأخرى، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا كانت أعضاء الجسم سليمة ويشعر الجسم بالحيوية والنشاط.

2- اكتمال الجانب النفسي: بمعنى أن يكون الإنسان في سلام مع نفسه، وأن يكون متمتعاً بالاستقرار الداخلي، وأن يكون قادراً على التوفيق بين رغباته وأهدافه وبين الحقائق المادية والاجتماعية والإنسان لا يستطيع أن يعيش بسلامة مع نفسه إلا إذا كان يتمتع بالصحة والعافية.

3- اكتمال الجانب الاجتماعي: بمعنى قدرة الإنسان على تكوين علاقات اجتماعية متفاعلة ومقبولة مع الناس، وأن يكون للإنسان دخل مناسب لتحقيق الحياة الصحية السليمة من مسكن صحي ومشرب وملبس مناسب لفصول السنة وغذاء صحي متوازن... الخ.

وهذا يوضح كما يقول "ليون روبرتسون" و"مارجريت هيجرتي" أن الصحة والمرض لا يرتبطان بالعوامل الفسيولوجية والبيولوجية فحسب، وإنما يرتبطان أيضاً بالسياق الثقافي لدى الشعوب، وبالسلوك الاجتماعي الذي يستند إلى هذا السياق، وبالتالي فالمرض وعلاجه هو مجرد عمليات بيولوجية في ظاهرها، ولكن كيف يصيب المرض الإنسان، ونوع هذا المرض، يتوقفان على عوامل اجتماعية وثقافية.

ومن ثم فإن تحليل التجربة الفردية يوضح أن مفهوم حلول المرض يتمثل في سلسلة معقدة من التفاعلات بين العوامل الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية، إما على هيئة آليات وسيطة تحكم قدرة الفرد على تحمل مناقشة أحداث الحياة المتأزمة مثل فقدان عزيز. أو الطلاق أو البطالة وهي الأحداث التي تعتبر أسباباً مسبقة لحلول المرض.

وبالتالي يتدخل موضوع سوسيولوجيا الصحة مع سوسيولوجيا الطب وعلم مسببات الأمراض، وهذا ما يشير إليه بما يسمى بالنموذج البيو نفسي اجتماعي بوصفه نموذج بديل للصحة والمرض يستخدمه بعض الأطباء المتخصصين ويحظى بمنزلة خاصة في دوائر مهنة التمريض نظراً لأنه نموذج أكثر رحابة وشمولاً ويستطيع أن يستوعب في إطاره الأبعاد البيولوجية والنفسية والاجتماعية.

في مقابل هذا نجد أن الأطباء يتخذون موقفاً معارضاً من موقف السوسيولوجيين واهتماماتهم بتصور الصحة والمرض وذلك باستخدام النموذج الطبي الذي يهتم بتحليل المبادئ الأساسية للعلم الطبي والتنظيمات الطبية بغض النظر عن الإسهامات الاجتماعية، ولكن هذا الاعتقاد خاطئ لأن العلم الطبي ما زال ينقصه الكثير من الاحتياجات الجديدة للعناية والرعاية للمريض قبل حاجة المريض إلى النصيحة والتأهيل.

ثانياً: مفهوم المرض وأسبابه

قبل أن نعرف مفهوم المرض لابد أن نوضح أن هناك فرق بين المرض والسقم والعلة، فالمصطلح الأول شامل ويشير إلى جميع الأحداث التي تنطوي على اعتلال الصحة، سواء كان الاعتلال سقماً أو علة، أما المصطلح الثاني وهو السقم فيشير إلى الحالات المرضية للكائن الحي بصرف النظر عن الإدراك الثقافي أو النفسي لهذه الحالات.

وأخيراً المصطلح الثالث وهو العلة فيشير إلى التعريف الثقافي والاجتماعي أو الإدراك الحسي والخبرات المرتبطة بالمرض، ويتضمن هذا المصطلح بعض الحالات المرضية التي يمكن أن تعد أمراضاً (وفق التعريف الطبي) وغيرها من الحالات التي ليست مصنفة كأمراض وفق التعريف الطبي للحالات المرضية.

وبالتالي فالمرض هو اضطرابات الصحة البدنية أو العقلية، وتلعب العوامل الاجتماعية دوراً هاماً في إحداث كثير من الأمراض، وقد يكون التأثير لهذه العوامل مباشراً أو غير مباشر في زيادة أو نقص احتمالات المرض.

كذلك تعتبر العوامل الاجتماعية من العوامل الحاسمة في توزيع كثير من الأمراض كما تتغير ظاهرة المرض تبعاً للمناطق الجغرافية، وتنطوي تحت معدلات تغير هذه الظاهرة أحوال اقتصادية وثقافية تؤثر على البيئة التي تسبب مرض الفرد ومدى تعرضه للمرض واستعداده له.

لكن يعرف المرض بشكل أكثر تحديداً بوصفه الحالة التي يحدث فيها خلل إما من الناحية العضوية أو الجسمية أو العقلية أو الاجتماعية للشخص، ومن شأنه إعاقة قدرة الشخص على مواجهة قلة الجهود اللازمة لأداء وظيفة مناسبة.

ولذا فالصحة الجيدة مطلب أساسي لأي شخص، فإذا كنا أصحاء استطعنا القيام بالعديد من أنماط النشاط ولكن الإصابة بالمرض تعرض الفرد لكثير من الصعوبات في القيام بالأعمال والأنشطة الضرورية لاستمرار الحياة اليومية، والمرض أصبح حقيقة عالمية في الحياة الإنسانية، تحدث في كل عصر، وفي أي مكان، وفي كل المجتمعات، ولكنه ليس على نسق واحد وإنما يحدث بدرجات متفاوتة بين تلك المجتمعات.

أسباب المرض وعوامل حدوثه:

هناك أسباب متعددة لحدوث المرض داخل المجتمع، ويمكن حصرها فيما يلي:-

1- المسببات النوعية الحيوية: وهي التي تكون من أصل حيواني كالأُميا أو ديدان البلهارسيا أو الانكلوستوما أو الاسكارس، وقد تكون الفطريات والبكتريا والفيروسات.

2- الأسباب الغذائية: مثل الكربوهيدرات والدهون والبروتينات والمعادن والمياه وهي تؤدي إلى المرض سواء كانت بنسبة قليلة أو كثيرة.

3- الأسباب الجيولوجية: مثل نوع التربة والمناخ ودرجات الحرارة والرطوبة.

4- البيئة البيولوجية والثقافية: وتشمل كثافة السكان والمستوى التعليمي والمستوى الاقتصادي والاستعدادات الصحية والعادات والتقاليد داخل المجتمع، خاصة وأن لكل مجتمع عاداته الراسخة القديمة التي تحكمه وبعض هذه العادات جيدة والأخرى تشكل عائقاً اجتماعياً يمنع الاستفادة من الخدمات الصحية المتاحة، وتبعاً لنوع التنشئة الاجتماعية التي تفرضها بيئة الفرد الاجتماعية يكون المستوى الصحي.

ثالثاً: النظريات المفسرة للمرض

وهنا يمكن التمييز بين النظريات المختلفة التي تعتمد على الفحص الموضوعي للأعراض الفيزيائية للمرض، وبين النظريات التي تنظر إلى الصحة والمرض على أنها نماذج للعلاقة بين التوافق وعدم التوافق بين الشخص والبيئة المحيطة به، والتي تشمل العوامل الإنسانية والمظاهر الايكولوجية والبناء الاجتماعي.

لكن يرى البعض أنه يمكن تفسير أسباب المرض عن طريق إحدى النظريتين التاليتين:-

أ- نظرية العلة أو السبب الواحد للمرض: وتفترض هذه النظرية أن المرض ينتج عن سبب واحد محدود، وفي هذه الحالة فإن وجود هذا السبب تظهر الحالة المرضية.

فمثلاً مرض الدرن ينتج عن ميكروب الدرن، وعلى هذا الأساس يمكن التخطيط للوقاية من المرض وذلك بإبعاد هذا الميكروب أو استخدام التلقيحات أو التطعيمات الواقية من هذا المرض.

ب- نظرية الأسباب المتعددة للمرض: في الواقع ينتج المستوى الصحي من تفاعل عدة عوامل يعمل كل منها في اتجاه قد يكون ايجابياً أو سلبياً، فإذا تغلبت العوامل السلبية ظهرت الحالة المرضية.

فمثلاً مريض الدرن يتأثر بالتفاعل بين ميكروب الدرن من ناحية والإنسان العائل أو المضيف من ناحية أخرى، أما إذا تغلبت العوامل الايجابية استمرت حالة الصحة والسلامة ويترتب على ذلك ضرورة أخذ كل هذه العوامل في الاعتبار عند الوقاية أو العلاج.

وعلى الرغم من أن النظرية الطبية اهتمت بالجانب البيولوجي والأسباب الميكروبية للمرض في البداية، واهتمت بالأعراض والعلامات العضوية الظاهرة إلا أن الأطباء أخيراً بدأوا يهتمون بالعوامل والظروف الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية التي تتدخل في حدوث المرض، وهو ما يؤكد صحة ما ذهبت إليه النظرية المتعددة الأسباب للمرض.